اليهود والحياة الاقتصادية

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات"، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى "سلسلة ترجمان" بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس "سلسلة ترجمان" وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات" الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

اليهود والحياة الاقتصادية

فرنر زومبارت

ترجمة
عصام سليمان

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر – إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

زومبارت، فرنر

اليهود والحياة الاقتصادية/ فرنر زومبارت؛ ترجمة عصام سليمان.

527 صفحة؛ 24 سم. – (سلسلة ترجمان)

يشتمل على ببليوغرافية (صفحات 483–505) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-746-7

1. اليهود – أحوال اقتصادية. 2. التجار اليهود. 3. اليهود والرأسمالية. 4. الاقتصاد – الجوانب الدينية – اليهودية. 5. اليهود واليهودية. أ. سليمان، عصام (مترجم). ب. العنوان. ج. السلسلة.

330.9174924

هذه ترجمة لكتاب

Die Juden und das Wirtschaftsleben

by Werner Sombart

عن دار النشر

Verlag von Duncker & Humblot, Leipzig

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة – منطقة 70
وادي البنات – ص. ب: 10277 – الظعاين، قطر
هاتف: 40356888 00974

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 837 991 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى
بيروت، حزيران/ يونيو 2026

تمهيد

قد يثير اهتمام بعض القراء معرفة ما دفعني إلى كتابة هذا الكتاب الخاص، وقد يهمهم أيضًا أن يعلموا كيف أريده أن يُقرأ.

وقعتُ من خلال المصادفة الخالصة على مسألة اليهود، عندما كنت أعتزم إجراء مراجعة جذرية لكتابي **الرأسمالية الحديثة**. وهنا بات مهمًا – من بين عوامل أخرى – معرفة السيرورات الفكرية التي أفضت إلى أصل "الروح الرأسمالية"، لغرز بضعة مسامير في العمق أكثر. لا مراء في أن دراسات ماكس فيبر المتعلقة بالصلات بين البيوريتانية [الطهرانية] والرأسمالية قادتني بالضرورة إلى تعقب تأثير الدِّين في الحياة الاقتصادية أكثر مما كنت قد فعلت حتى الآن، وبذلك اقتربت أول مرةٍ من مسألة اليهود؛ إذ تبيّن من الفحص الدقيق للأدلة التي ساقها فيبر أن عناصر العقيدة [الدوغما] الطهرانية التي بدت لي ذات أهمية حقيقية في تكوين الروح الرأسمالية، كانت جميعها مستقاةً من دائرة أفكار الدِّين اليهودي.

بيد أن هذه المعرفة وحدها ما كانت لتستحثني، في موضوع تاريخ نشوء الرأسمالية الحديثة، على تخصيص بحث مفصل عن اليهود لو لم تفرض عليّ في السياق اللاحق لأبحاثي – ومن جديد بمحض المصادفة – القناعةُ التي تميل إلى أن مساهمة اليهود في بناء الاقتصاد الحديث أكبر بكثير أيضًا مما يشعر به المرء حتى الآن. قادني إلى هذه الرؤية الطموح إلى جعل تلك التحولات في الحياة الاقتصادية الأوروبية – التي وقعت منذ نهاية القرن الخامس عشر وصولًا إلى نهاية القرن السابع عشر – تحولات مفسّرة ومعقولة، وهي تحولات نجم عنها انزياح مركز الثقل من بلدان جنوب أوروبا إلى بلدان شمال غرب أوروبا. فالأفول المفاجئ لإسبانيا

والنهوض المفاجئ لهولندا، وانطفاء كثير من المدن الإيطالية والألمانية وصعود مدن أخرى، مثل ليفورنو، وليون (بصورة مؤقتة)، وأنتويرب (بصورة مؤقتة)، وهامبورغ، وفرانكفورت أم ماين، كل ذلك لم يبدُ لي مفسَّرًا على نحوٍ كافٍ من خلال الأسباب التي ذُكرت حتى الآن (اكتشاف الطريق البحري إلى شرق الهند، انزياح علاقات القوة بين الدول). هنا تكشّف لي على نحو مفاجئ التوازي الذي بدا أول الأمر خارجيًا محضًا بين القَدَر الاقتصادي للدول والمدن وهجرات اليهود الذين عاشوا آنذاك – كما هو معروف – إعادةَ انتشارٍ جديد في المكان. وبإلقاء نظرة من كثب، تبيَّن لي بما لا يرقى إليه الشك أن اليهود كانوا بالفعل هم الذين حفَّزوا في لحظات حاسمة النهوض الاقتصادي في الأماكن التي ظهروا فيها، وكانوا أيضًا السبب وراء الأفول في الأماكن التي نزحوا عنها.

غير أن هذه الملاحظة الواقعية تنطوي في ذاتها على جوهر المشكلة العلمية. ما الذي كان يعنيه "النهوض الاقتصادي" في تلك القرون؟ ما هي الإنجازات النوعية التي ساهم من خلالها اليهود في تحقيق ذلك "النهوض"؟ وما الذي مكَّنهم من تحقيق هذه الإنجازات الخاصة؟

لم تكن الإجابة الدقيقة عن هذه الأسئلة ممكنةً طبعًا في نطاق تاريخ عام للرأسمالية الحديثة. إلا أنها بدت لي مثيرة جدًّا لأقطع العمل بضع سنوات على كتابي الرئيس، وأتفرغ تمامًا للمسألة اليهودية. على هذا النحو، نشأت فكرة هذا الكتاب.

على أن الأمل في الانتهاء من إتمام هذا العمل في غضون عام تقريبًا سرعان ما تبيّن خطله، حيث لم تكن هناك عمليًا أي أعمال تمهيدية.

الأمر بالفعل شديد الغرابة. لقد كُتِب الكثير جدًّا عن الشعب اليهودي: عن مشكلته الأهم؛ لكن لم يُقَل شيء له أهمية جوهرية بشأن موقعه في الحياة الاقتصادية. فما نمتلكه مما يدعى التواريخ الاقتصادية اليهودية أو التواريخ الاقتصادية لليهود، لا يستحق في معظمه هذه التسمية على الإطلاق؛ إذ ليس هناك سوى تواريخ قانونية، بل مجرد سجلات لوقائع وأخبار قانونية، وهي، فضلًا عن ذلك، تهمل العصر الحديث بصورة مطلقة. كان عليّ في البداية، إذًا، أن أجمع المادة الموضوعية من مئات الأبحاث الأحادية (وبعضها متميز جدًا) أو من المصادر، لكي أضع – لا أجرؤ

على قول لكي أرسم – أوَّل مرةٍ عمومًا صورةً عن النشاط الاقتصادي لليهود إبان القرون الثلاثة الأخيرة.

وإذا كان كثير من المؤرخين المحليين قد بذل على الأقل جهدًا لتسجيل الحياة الاقتصادية الخارجية لليهود وقَدَرهم إبان القرون الأخيرة، إلا أن أحدًا لم يجرؤ حتى الآن على طرح السؤال، حتى ولو في عموميته، عن السبب وراء هذا القَدَر الخاص لليهود، أو بدقة أكبر: ما الذي مكَّنهم من أداء ذلك الدور البارز في بناء الاقتصاد الحديث الذي نراهم يؤدونه في الواقع. وما قيل في الإجابة عن هذا السؤال يبقى خبيثًا في ترسيمات فقيرة عفَّى عليها الزمن تمامًا: "وضع خارجي قاهر"، "التمكّن من فنون التجارة والمساومة"، "انعدام الضمير": هذه ومثيلاتها من العبارات العامة كان عليها أن تسهم في تقديم الإجابة عن واحد من أكثر أسئلة تاريخ الشعوب دقة.

إذًا، كان علينا بدايةً أن نحدِّد بدقة بالغة ما الذي نريد تفسيره حقيقةً، وبكلمات أخرى: لِمَ يُراد إثبات كفاءة اليهود؟ عندئذ يمكن اختبار الإمكانات التي جعلت الكفاءة الخاصة لليهود – أي أن يصبحوا مؤسسي الرأسمالية الحديثة – جديرة بالتصديق. قسم كبير من هذا الكتاب مخصّص لهذا الاختبار، وليس هنا المكان الملائم لإعلان نتائج أبحاثي بالتفصيل. ما أريد قوله، كي يبقى في أذن القارئ موضوعًا رئيسًا، هو أن أهمية اليهود الكبرى في الحياة الاقتصادية (والثقافية عمومًا) الحديثة، والتي تفوق جميع التأثيرات الأخرى، إنما تكمن – في رأيي – في الوحدة الفريدة للظروف الداخلية والخارجية؛ وأنني أعزو إليهم الحقيقة (وهي حقيقة عرَضية تاريخيًا) بأن شعبًا ذا طبيعة خاصة تمامًا – شعبًا صحراويًا، دائمَ الترحال، وذا دمٍ حار – أُلقي به وسط شعوب تختلف عنه في طبيعتها – تعيش في مناخ بارد رطب مستقرة ومتجذّرة في الأرض، وتتميز بثقل الدم [مزاجها بلغمي هادئ] – فعاش هناك وعمل تحت ظروف خارجية فريدة من نوعها تمامًا. لو أنهم بقوا جميعًا في الشرق أو قُذِف بهم إلى بلدان حارة أخرى، لكان تأثير خصوصيتهم طبعًا غريبًا وفريدًا من نوعه أيضًا، لكن تأثيرهم ما كان ليكون ديناميًا على هذا النحو. ربما كانوا قد أدّوا دورًا مشابهًا للدور الذي يقوم به الأرمن اليوم في القوقاز، أو القبائل في الجزائر، أو كانوا مثل الصينيين أو الأفغان أو الفرس في الهند. لكن ما كانوا ليصلوا قط إلى التأثير المذهل في الحضارة الإنسانية، أي إلى الرأسمالية الحديثة.

أما كيف يكون ظهور الرأسمالية الحديثة حدثًا فريدًا من نوعه تمامًا، فهذا ما تُظهره أيضًا هذه الحقيقة التي تفسّر جانبًا كبيرًا من جوهرها، والتي تتمثل في أن طبيعتها تأسست على التوليفة "العرضية" الخالصة التي جمعت بين شعوب شديدة التنوع وقدرها "العرضي" الصرف الذي حتَّمته آلاف الظروف. لا رأسمالية حديثة، ولا حضارة حديثة، من دون انتشار اليهود في البلدان الشمالية للكرة الأرضية.

أجريتُ أبحاثي وصولًا إلى الوقت الراهن، وقدمتُ لكل واحدٍ – كما آمل – الدليل على أن الحياة الاقتصادية في أيامنا تخضع بقدر متزايد للتأثير اليهودي. لم أقل – ولهذا أريد أن أفعل ذلك هنا – إن تأثير الشعب اليهودي بدأ يتقلص في الفترة الأخيرة على ما يبدو. فالأسماء اليهودية تقلّ ظاهريًا أكثر فأكثر في المواقع الوظيفية المهمة: في المواقع الإدارية على سبيل المثال أو في وظائف الرقابة في المصارف الكبرى، وهذه حقيقة لا ريب فيها قط، ويمكن التحقق منها بعملية إحصائية مجردة. لكن يبدو أن ما يحدث هو إبعاد فعليّ للعنصر اليهودي. ومن المهم الآن تقفي أسباب هذه الظاهرة المهمة، وهي قد تكون متنوعة كثيرًا. قد تكمن، من ناحية، في تغير القدرات الشخصية للفاعلين الاقتصاديين: فغير اليهود تكيّفوا أكثر مع متطلبات نظام الاقتصاد الرأسمالي، و"تعلموا"؛ في حين خسر اليهودُ، لأسباب خارجية وداخلية، جزءًا من كفاءتهم الخاصة التي تمتعوا بها سابقًا والمتصلة بالرأسمالية، وذلك من خلال التغييرات التي وصل إليها قَدَرهم الخارجي (تحسن وضعهم المدني، وتناقص حسِّهم الدِّيني). لكن ربما يتعين علينا، من ناحية أخرى، أن نعزو أسباب تقلص التأثير اليهودي في حياتنا الاقتصادية أيضًا إلى تغيّر الشروط الموضوعية التي تجري في ضوئها العملية الاقتصادية. فالمشاريع الرأسمالية (نفكر هنا في مصارفنا الكبرى!) يعاد تشكيلها أكثر فأكثر في ظلِّ إدارات بيروقراطية ما عادت تتطلب خصائص تجارية نوعية بالقدر الذي كانت عليه سابقًا؛ أي تحل البيروقراطية محل النزعة التجارية.

ينبغي أن يُترك للأبحاث الدقيقة أمر تحديد مدى تقلص التأثير اليهودي موضوعيًا في المرحلة الأخيرة من الرأسمالية. في الوقت الراهن، أستثمر الملاحظات الشخصية التي قمت بها أنا وآخرون لكي أجد، في التعليل المعقول الوحيد للسيرورات الملاحظة، توكيدَ أنني بالفعل مضيت في الطريق الصحيح في التفسير الذي اجترحته

في هذا الكتاب للتأثير اليهودي حتى الآن. إن تناقص هذا التأثير أشبه بتجربة، كان يكمن فيها بالضرورة السبب الذي استتبع هذا التأثير.

لا أعتقد أن ثمة في الحقيقة ما يمكن أن يهز الأفكار الأساسية في هذا الجزء من العرض الذي يوضح كفاءة اليهود للرأسمالية، أي القسم الثاني من الكتاب، ولا في القسم الأول منه الذي يبيّن أن مساهمتهم في بناء الاقتصاد الحديث هي حقيقة موضوعية. ربما تخضع هنا وهناك للتصحيح أو التعديل أو الإكمال، إلا أنه لا يمكن دحض صوابية استدلالاتها.

لم يخامرني الشعور ذاته بالثقة والاطمئنان بشأن القسم الرئيس الثالث من كتابي الذي يسعى للإجابة عن السؤال عن أصل الطبيعة اليهودية وجوهرها الخاص. وهنا نحن لا نزال نستند اليوم، وربما دائمًا، في نقاط حاسمة من الأدلة إلى الظنون التي تحمل بداهة بالضرورة سمةً شخصية قوية. مع ذلك، سعيت في فصل خاص خصّصته لمناقشة "المسألة العرقية" إلى أن أجمع نقديًا تلك الرؤى التي يحق لنا أن نعدّها اليوم رؤى مؤكدة إلى حدٍّ ما، لكي نُظهِر قبل كل شيء الفرضيات الكثيرة غير المؤكدة بوصفها كذلك. لقد أصبح الفصل نتيجة ذلك وحشًا حقيقيًا: ثقيلًا، مقطّعًا وبلا شكل، ويخلِّف وراءه شعورًا قاسيًا بعدم الرضى وعدم الاتزان إلى حد أنني رغبت مرة أخرى في محو الفصل الأخير الذي أحاول فيه وَصْفَ "قَدَر الشعب اليهودي" في سماته المميزة. بيد أن هذا لم يكن ممكنًا إلا عندما تُوَحدّ جميع الحقائق المنعزلة المتباينة التي يلقيها البحث العلمي أمامنا بقسوة ومن غير تمييز في رؤية شخصية ضمن صورة موحدة. وهنا أتساءل إلى أي مدى كنتُ منصفًا للواقع، وهذا ما لن يتقرر – ربما! – إلا في المستقبل. في أي حال، أعترف هنا ببساطة أن عيونًا أخرى ترى المسألة على نحو مختلف.

أود أن أشير أخيرًا إلى بضع خصائص لهذا الكتاب، آملًا بذلك ألّا تمحو سحبُ سوء الفهم معالمَ بنائي الفكري كما يخفي الضباب أطراف البنيان، فيبدو للناظر "النقدي" بناءً آخر مختلفًا كليًا.

1. هذا الكتاب أحادي الجانب؛ وهو يريد أن يكون كذلك، لأنه يجب أن يكون أحادي الجانب، لكي يستطيع أن يمارس في العقول تأثيره المُغيِّر.

يعني ذلك أن هذا الكتاب يريد أن يكتشف أهمية اليهود في الحياة الاقتصادية الجديدة. وهو يحشد لهذه الغاية كلَّ المادة التي يمكن انطلاقًا منها معرفة هذه

الأهمية، من دون أن نضطر ولو حتى إلى ذكر العوامل الأخرى – إذا استثنينا اليهود – التي ساهمت في بناء الرأسمالية الحديثة. لكن ينبغي طبعًا ألا يُنكَر تأثيرها؛ إذ يمكن بمثل هذا الحق تمامًا أن يُكتب كتاب يتناول أهمية الأعراق الشمالية بالنسبة إلى الرأسمالية الحديثة، أو يمكن بالحق نفسه – كما قلت من قبل: من دون اليهود لا رأسمالية حديثة – أن نصوغ العبارة على النحو التالي: من دون خصائص التقنية لا رأسمالية حديثة، ومن دون اكتشاف كنوز الفضة في أميركا لا رأسمالية حديثة أيضًا.

ومع أن كتابي، كما أسميه، كتابٌ أحاديُّ الجانب، فهو بالتأكيد:

2. ليس كتاب أطروحة على الإطلاق. أعني أنه ينبغي ألا يثبت فيه، أو من خلاله، أن "تصورًا للتاريخ" بعينه هو الصائب، وينبغي ألا يُقدَّم من خلاله أيضًا شيء من قبيل تأسيس الحياة الاقتصادية على أساس "عرقي". أما النتائج "النظرية" أو "التاريخية الفلسفية" التي يمكن أو يتعين استخلاصها من عرضي فهي متروكة الآن، ولا تمتُّ بدايةً بأي صلة إلى مضمون هذا الكتاب الذي يقتصر على نقل ما رأيته، ويسعى إلى تفسير الوقائع المرصودة. لكن لهذا السبب ينبغي أيضًا أن ينطلق "تفنيد" مزاعمي، إذا ما حاول أحدهم أن يفعل ذلك، دائمًا من الموضوعية التجريبية–التاريخية. فالتفنيد الحق لا يكون إلا بإثبات الخطأ في ما ادّعيتُه من حقائق، أو بيان مواضع الخلل في استدلالاتي في كل حالة على حدة، حيثما حاولت فهم الوقائع سببيًا.

في النهاية، أشدّد على لفت الانتباه إلى أن:

3. الكتاب كتابٌ علمي صارم. لا أريد بذلك طبعًا إطراء الكتاب، بل على العكس أريد توضيح نقصٍ فيه. فلأنه كتاب علمي، فهو يقتصر تحديدًا على إثبات وقائع وتفسيرها ويتضمن كلَّ الأحكام القيمية. وهذه الأخيرة ذاتية دائمًا، ولا يمكن أن تكون إلا ذاتية دائمًا، لأنها في نهاية المطاف مبنية في نظرة كل فرد بعينه إلى العالم والحياة. إلا أن العلم يسعى لتقديم معرفة موضوعية، ويبحث عن الحقيقة التي هي في الجوهر حقيقة واحدة دائمًا، في حين أن هناك قيمًا من حيث المبدأ بقدر ما يوجد ناس يقيِّمون. غير أن المعرفة الموضوعية تصبح عكرة في اللحظة التي تختلط فيها مع أي أحكام قيمةٍ ذات صبغة ذاتية، ولهذا السبب يجب

على العلم وممثليه أن يفرّوا من تقييم ما أدركوه، كما يفرّون من الطاعون. على أن التقييم الذاتي لم يثر في أي مكان هذا القدْر من العبث، ولم يعرقل في أي مكان معرفة الوقائع الموضوعية بالقدر الذي حصل في مجال "المسألة العرقية"، خصوصًا في نطاق ما سمي "المسألة اليهودية".

من المفترض أن يحافظ هذا الكتاب على طابعه الفريد تمامًا من خلال حديثه عن اليهود على امتداد 500 صفحة، من غير أن يُلمح أيضًا، ولو في فقرة وحيدة، إلى شيء من قبيل تقييم اليهود وطبيعتهم وإنجازاتهم.

بالتأكيد، يمكننا أيضًا أن نناقش، بالمعنى العلمي الدقيق، مشكلة القيمة في هذه الحالة الخاصة: أي السؤال الخاص بقيمة جماعة سكانية محدّدة أو نفي قيمتها. دعونا نبيِّن للحظة أن هذا ينبغي ألا يحصل إلا بمعنى تنويري أو نقدي تحذيري؛ أي على النحو الآتي مثلًا:

يمكن لفت الانتباه إلى أن بوسعنا أن نقيّم الشعوب كما نقيّم البشر، بحسب ما هم عليه وبحسب ما ينجزونه، ويجب أن يظهر عندئذ أن المعيار الأخير في كل حالة هو معيار ذاتي. ولهذا من غير المسموح الحديث مثلًا عن أعراق "دنيا" و"عليا" ووصف اليهود بأنهم عرق "أدنى" أو "أعلى"، لأن الأمر يتوقف على حسِّ القيمة الشخصي للفرد، وما هي الطبيعة أو الإنجاز الذي يريد أن يراه ذا قيمة أو من غير قيمة.

تقودنا إلى ذلك الاعتبارات الآتية:

لنتأمل قدَر اليهود: هم فوق كل الشعوب شعب أبدي. "أمّة تقوم وأمّة تسقط، أمّا إسرائيل فتبقى إلى الأبد"، ورد هذا بفخر في المدراش، المزمور 36. هل هذه المدة الطويلة لشعب، والتي ما زال يمجدها كثير من اليهود اليوم، ذات قيمة أيضًا؟ تأمل ذلك هاينريش هاينه (Heinrich Heine) بصورة مختلفة، عندما كتب ذات مرة:

"شعب الشرّ الأصلي هذا ملعون منذ أمد طويل، وهو يجرُّ عذاب لعنته عبر آلاف السنين. يا لمصر هذه! صنائعها تعاند الزمن؛ أهراماتها ما تزال صامدة لا تتزعزع؛ ومومياءاتها لا تزال عصية على التحلل والفناء كما كانت من قبل، بل لعلّها أشد صلابة من المومياء الحية لهذا الشعب الذي يجوب وجه الأرض، ملفوفًا بقماط

أبجديته القديمة قِدَم الدهر، قطعة متحجرة من تاريخ العالم، شبح يتاجر لكسب قوته بالسندات والثياب البالية".

إنجازات اليهود: لقد وهبونا الإله الواحد، ويسوع المسيح، والمسيحية أيضًا بازدواجية أخلاقها.

هل هي هبة ثمينة؟ تناول فريدريش نيتشه (Friedrich Nietzsche) الموضوع على نحو مختلف.

لقد جعل اليهود الرأسمالية في شكلها اليوم ممكنة. أهو إنجاز يستحق الشكر؟ هذا السؤال يُجاب عنه أيضًا بصورة مختلفة كليًا، وذلك وفق علاقة الفرد الشخصية بالحضارة الرأسمالية.

مَنْ غير الله ينبغي أن يقرر ما هو الإنجاز الأكثر قيمة "موضوعيًا"؟ وما هي الطبيعة الأكثر قيمة "موضوعيًا" بين شخصين، أو شعبين؟ لا أحد بمفرده، ولا عرق بمفرده يمكن أن يُقيَّم بأنه – بهذا المعنى – أعلى من الآخرين. وإذا ما تنطح رجال جدِّيون لإعادة المحاولة وقاموا بمثل هذه التقييمات، فلهم مطلق الحق طبعًا في التعبير عن رأيهم الشخصي. لكن ما إن تمضي الأحكام القيمية إلى اتخاذ طابع الحكم الموضوعي والعام، يجب علينا بلا مهادنة تعريتها من كرامتها التي ادُّعيت زورًا، ولا يحق لنا أن نتراجع – في ما يخص خطورة هذه الظواهر – أمام أعتى الأسلحة في الصراع مع العقول: المثيرة للسخرية.

مضحك في الحقيقة أن نرى كيف يمتدح ممثلو أعراق محدّدة، أو أنصار شعوب بعينها، عرقَهم أو شعبهم بوصفه "المختار" والقيِّم والأعلى شأنًا وغير ذلك مما أعلم ولا أعلم (تمامًا كما يمتدح الخطيب خطيبته!) ومؤخرًا حظي عرقان اثنان (أو جماعتان من البشر) بمكانة رفيعة خاصة، لأن الدعاية – في رأيي – فعلت جُلّ ما تستطيع من أجلهما، هما الجرمانيون واليهود بالذات الذين (بحق) أجاروا يهودًا ذوي عقلية وطنية في مواجهة الهجمات التي شنّها ضدهم باسم شعوب أخرى، وخصوصًا الشعوب الجرمانية، متحدثون مغرورون. ونرى، من ناحية أخرى، أن من حق أنصار كلتا الجماعتين طبعًا أن يعدّوا جماعتهم الأكثر أهمية ويغمرونها بالحب (تمامًا كما يحب الخطيب خطيبته!). لكن يا له من أمر مضحك أن تسعى إلى فرض هذه الذائقة على الآخرين! عندما يمتدح أحدهم

الشعوب الجرمانية، لماذا لا يُواجَه بكلمات فيكتور هين (Victor Hehn) – وقد كان رجلًا ذا صدقية – التي تبلغ ذروتها في ادعائه القائل إن "الإيطالي يتبوأ مرتبةً أعلى في السلسلة التراتبية التي تتطوّر من النماذج الدنيا إلى الكائنات العضوية الأكثر نبلًا، ويمثّل ثقافة إنسانية أكثر عقلنة وأغنى تعليمًا من الإنكليزي على سبيل المثال" (بهذا الحكم لا يعبّر هين طبعًا عن معرفة موضوعية، شأنه شأن الأصدقاء الألمان في الحكم المضاد).

كذلك، من يقدر أن يفنِّد قولي عندما أضع الزنوج في مرتبة أعلى من السكان البيض في الولايات المتحدة؟ وهل يكون تفنيدًا أن يقال لي إن الحضارة المادية الأعلى تطورًا هي من إنجاز اليانكي؟ في هذه الحالة، يجب أن "يبرهن" لي أولًا على أن هذه الحضارة الأميركية أكبر قيمةً من لاحضارة الزنوج وما شابه.

بيد أن التحليل العلمي لمسألة التقييم [التصنيف] العرقي له مهمات أخرى. فعليه أن يثبت كيف تغيرت معايير القيمة بمرور الوقت، وسوف يكون عليه في هذه النظرة التاريخية للقرن الماضي أن يخلص إلى أن مسارًا تطوريًا يمضي – كما عبّر أحد العقلاء ذات يوم – من الإنسانية عبر القومية إلى الوحشية، لكن من هذا المسار تتفرع – مباشرة قبيل الانحدار إلى الوحشية – وجهة نظر أخرى، يمكن أن يكون شعارها: من الإنسانية (جدير ذكره أن ليس المقصود هنا الفكرة المنظِّمة للإنسانية، بل التقييم المماثل الصوري لكل الناس فحسب) عبر القومية (وتمجيد الأعراق) إلى التخصص (أو النوعية)؛ أي إلى تقييم الإنسان بصرف النظر عن أصله القبَلي، وفقًا لطبيعته النوعية القائمة على الدم [الخصائص البيولوجية الوراثية]. نحن نعيش اليوم تمامًا الكيفية التي يتشكل على وفقها مفهوم العرق من جديد. ولا نفهمه بعد الآن من حيث هو حقيقة تطورية تاريخية، بل بوصفه مطلبًا مثاليًا.

لا نريد – إذا ما ترك المرء الآن تدريجيًا التقييم الجمعي لأعراق وشعوب بكاملها بوصفها مثالًا عامًا مبالغًا فيه – الرجوع مثلًا إلى الفهم العامي للتكافؤ بين كل من يحمل وجهًا إنسانيًا، بل نريد أن ندخل إلى الفهم "الأعلى" الذي يتلخص في أن الدم هو الذي يجعل الإنسان ذا قيمة، لكن سيّان إن كان دمًا جرمانيًا أو يهوديًا أو زنجيًا. ينبغي أن يكون الإنسان "أصيلًا"، ووفقًا لهذا الاعتبار تكون يهوديةٌ ذات طبع حيوي أكثرَ قيمة من ألمانية خاملة وساذجة، والعكس.

أخيرًا، يمكن في بحث علمي موضوعه تقييم جماعات سكانية بكاملها أن يشار أيضًا إلى أن هناك أناسًا تكون الأعراق والشعوب، بالنسبة إليهم، هيكوبا[1] عمومًا؛ فلا يقومون إلا بتقييم الأشخاص الأفراد، والذين في رأيهم أن الجماهير كلها، سواء أكانت أعراقًا أم غير ذلك، ممتلئة بحشوة لا قيمة لها، وفيها هنا وهناك إنسان ذو قيمة، إنسان نبيل. هؤلاء هم الأشخاص الذين توقفوا منذ زمن طويل عن تقسيم الناس عموديًا، وعمدوا إلى فرزهم من خلال خط أفقي إلى "أناس" وغير ذلك، والذين كثيرًا (أو نادرًا) ما يجدون طبعًا بعد ذلك "فوق الخط" يهودًا ومسيحيين، أشخاصًا من الأسكيمو أو زنوجًا (إذ يوجد في كل جماعة بشرية "أناس" أيضًا: وهذا ما لا يستطيع المرء أن ينكره: فخلف أي ألماني أو يهودي من طبقة عليا يقف مثلًا الزنجي بوكر واشنطن[2] الذي لا يقل عنهما شأنًا، أو بعض ممثلين آخرين أكفاء جدًّا فكريًا وفنيًا وأخلاقيًا لهذا العرق الذي يُقيَّم إجمالًا على أنه مياه للشطف).

وغني عن البيان أن هذا النوع الأخير من التقييم يجعل تقدير جماعة سكانية محدّدة يعتمد بالمطلق على التجربة الحياتية الشخصية. أما كيف توصَّل كثير منا نحن الحداثيين، ومن غير أن نريد تمامًا، إلى الإعلاء من شأن اليهود بالذات، فهذا ما عبّر عنه بعبارات كلاسيكية شاعرنا المحبوب تيودور فونتانه (Theodor Fontane) في أبيات من قصيدته:

في عيد ميلادي الخامس والسبعين

غير أن من جاؤوا في يوم الاحتفال،

كانوا أسماء مختلفة تمامًا،

قدموا من دون خوف أو ملامة،

لكنهم ينتمون في الحقيقة إلى أصول نبيلة:

من تنتهي أسماؤهم بـ "برغ" وهايم"،

---

(1) هيكوبا (Hekuba) هي ملكة طروادة وزوجة بريام في الميثولوجيا الإغريقية، حياتها وتجاربها بما فيها من تراجيديا وفَقْد جعلت منها رمزًا للقدرة على التحمل والقوة في مواجهة الشدائد. (المترجم)

(2) بوكر واشنطن (Booker Washington) (1856–1915) كاتب ومدافع عن حقوق الأميركيين السود، وكان منذ عام 1895 حتى وفاته أشهر أميركي من أصل أفريقي في الولايات المتحدة. (المترجم)

يندفعون في حشود ضخمة،

ويأتي حاملو اسم "ماير" في كتائب،

ومثلهم أيضًا اليهود البولنديون، وأولئك الذين يقيمون أبعد إلى الشرق؛

أبرام، إسحق، إسرائيل،

ويحضر جميع الآباء،

وبلطفٍ وتودّد يجعلونني أتقدمهم،

فما حاجتي بعدُ إلى تلك الأسماء الغريبة، مثل "إيتسنبليتس"!

كنتُ لكل واحد منهم ما كنتُه من قبل،

قرأ لي الجميع،

وعرفني الجميع منذ زمن طويل،

وهذا هو الأهم... "تعال يا كوهن".

يتعيّن على البحث العلمي بشأن مسألة تقييم الأعراق أيضًا – هذا ما أقوله – أن يضع في الحسبان هذا النوع من الأحكام القيمية، وأن يوضح من ثمّ بصورة خاصة جدًّا الطابع الشخصي لمثل هذه الأحكام، ويدلّل على سمتها الشخصية، وبالتالي على طابعها "غير العلمي". غير أن كتابي ينبغي أن يكون كتابًا علميًا، ولهذا فهو لا يتضمن أي أحكام قيمية. لكن الرأي الشخصي للمؤلف لا يهم العالم الواسع، بل يعني أصدقاءه فحسب. وهم يعرفون رأيه في الحقيقة.

فرنر زومبارت

المحتويات

القسم الأول
مساهمة اليهود في بناء الاقتصاد الحديث

الفصل الأول: مناهج البحث – نوع المساهمة ومداها 23

الفصل الثاني: انزياح المركز الاقتصادي منذ القرن السادس عشر 33

الفصل الثالث: انتعاش التجارة العالمية للسلع 49

الفصل الرابع: تأسيس الاقتصاد الكولونيالي الحديث 57

الفصل الخامس: تأسيس الدولة الحديثة 79

أولًا: اليهود بوصفهم مُوَرِّدين 81

ثانيًا: اليهود بوصفهم مُمَوِّلين 84

الفصل السادس: إضفاء الطابع التجاري على الحياة الاقتصادية 95

أولًا: نشوء السندات 96

1. السند القابل للتظهير 101

2. الأسهم 103

3. البنكنوت (العملة الورقية) 105

4. السند الجزئي 108

ثانيًا: تجارة السندات 129
1. تكوّن حق التداول 129
2. سوق الأوراق المالية (البورصة) 131
ثالثًا: خلق السندات 157
رابعًا: التحويل التجاري للصناعة 169
الفصل السابع: تكوّن روح اقتصادية رأسمالية 177

القسم الثاني
كفاءة اليهود للرأسمالية

الفصل الثامن: المسألة 227
الفصل التاسع: وظائف الفاعل الاقتصادي في النظام الرأسمالي 231
أولًا: رجل الأعمال 235
ثانيًا: التاجر 237
الفصل العاشر: كفاءة اليهود الموضوعية للرأسمالية 243
أولًا: الانتشار المكاني 244
ثانيًا: الغربة 250
ثالثًا: نصف مواطنة 252
رابعًا: الثروة 258
الفصل الحادي عشر: أهمية الديانة اليهودية في الحياة الاقتصادية 273
ملاحظة أولية 273
أولًا: أهمية الدين عند الشعب اليهودي 274
ثانيًا: مصادر الديانة اليهودية 279
ثالثًا: الأفكار الأساسية في الديانة اليهودية 291

رابعًا: فكرة الاختبار 299
خامسًا: عقلنة الحياة 310
سادسًا: بنو إسرائيل والغرباء 332
سابعًا: اليهودية والطهرانية (البيوريتانية) 342
الفصل الثاني عشر: الطبيعة اليهودية 347
أولًا: المسألة 347
ثانيًا: محاولة إيجاد حلّ 363
ثالثًا: الطبيعة اليهودية في خدمة الرأسمالية 377

القسم الثالث
كيف تشكّلت الطبيعة اليهودية

الفصل الثالث عشر: المسألة العرقية 385
تمهيد 385
أولًا: طبيعة اليهود الأنثروبولوجية 387
ثانيًا: "العرق" اليهودي 397
ثالثًا: ثبات الطبيعة اليهودية 402
رابعًا: التعليل العرقي لطبائع الشعوب 433
الفصل الرابع عشر: قدر الشعب اليهودي 451
المراجع 483
فهرس عام 507